أ. الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

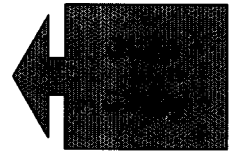

النجف الأشرف
عاصمة ثقافية للعالم الاسلامي

لقد كان اختيار النجف الأشرف عاصمة ثقافية للعالم الإسلامي محل استقبال كبير من قبل العلماء والمفكرين وكل المتحرّقين لقضية الثقافة في عالمنا الاسلامي.

ذلك أن العاصمة فيما هو المفهوم من هذا المصطلح قد تعني أموراً أهمها:

اولاً – امتلاك قدرة الدفاع عن ثغور الوطن.

ثانياً: التمتع بالتوهج الجذاب والمنسق لمسيرته.

ثالثاً: التميز بالخصائص القيمة مما يجعلها نموذجاً شاهداً حياً.

والنجف الاشرف بحق تمتلك كل هذه الامور وما يزيد عليها؛

أولاً: إمتلاك قدرة الدفاع عن ثغور الوطن:

فهي مدينة المرجعية التأريخية المدافعة لأكثر من ألف عام عن حمى الدين وثغور الإسلام كأقوى ما يكون الدفاع وإلى حد الاستماتة. بالإضافة لجهادها الميداني المدافع

عن حقوق الشعوب الإسلامية سواء في العراق او فلسطين أو سائر بلدان الشرق الأوسط وفي شمال أفريقيا بل وكل العالم الإسلامي.

فما يمكننا هنا أن نذكره عن المرجعية هو أنها بدأت منذ عام ٤٤٨هـ حيث اتجهت الأنظار إلى حوزتها العلمية بعد هجرة الشيخ الطوسي إليها، وإن كانت الحركة العلمية بدأت فيها قبل ذلك.

وبقيت على مر السنين منارا للتعليم والتبليغ الديني والمرجعية الفقهية والفكرية تنجب العلماء الفطاحل جيلاً بعد جيل وبوتيرة متصاعدة وتألق مستمر، في حين كانت الحواضر العلمية الاخرى في الحلة وبغداد وعامل والري وقم والقرويين والزيتونة والقاهرة وغيرها من أماكن العالم الاسلامي تتشكل وتضمحل.

وكانت هذه المسيرة عبر العصور ترفد العالم الإسلامي بالكبار الذين لانستطيع أن نستوعب هنا حتى قائمة أسمائهم وذلك بدءا بالشيخ الطوسي الكبير وولده الحسن وتلامذته الذين كانوا بالمئات، إلى أن بلغت العصر المتأخر فلمعت نجوم من أمثال:

العلامة الكبير السيد محمد مهدي بحر العلوم المتوفي سنة ١٢١٢هـ

والعلامة الكبير السيد جواد العاملي صاحب «مفتاح الكرامة» المتوفي سنة ١٢٢٦هـ

والعلامة الكبير الشيخ جعفر صاحب (كشف الغطاء) والمتوفي سنة ١٢٢٨هـ

والعلامة الكبير الشيخ محمد حسن النجفي صاحب (جواهر الكلام) والمتوفي سنة ١٢٦٦،

ثم الشيخ الأعظم الأنصاري صاحب (الوسائل) و (المكاسب) والمتوفي سنة ١٢٨١.

وهكذا تتابع العظام (الشيرازي، والآخوند، واليزدي، والخليلي، والإصفهاني، والنائيني، والكمباني، والعراقي) وغيرهم من المراجع العظام الذين عشنا في كنفهم وتربينا على أيديهم ونهلنا من معينهم ومعنا الالوف من طلبة العلم الديني؛ ويشرفنا ان نذكر منهم - لاعلى سبيل الحصر - الأئمة: الحكيم، والشيرازي، والخوئي، والصدر، والخميني، والشاهرودي وغيرهم كثير فرحمهم الله جميعاً وحشرهم مع الصدّيقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.

ومما يذكر أنه يَقلّ أن نجد عالماً فطحلاً من علماء مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) لم ينهل من علوم الحوزة النجفية العريقة.

أما جهادها الميداني فحدث عنه ولاحرج. وقد تتابعت عليها الغير والحوادث منذ ظهرت عمارتها بظهور القبر العلوي الشريف عام ١٧٠هـ وسطع نجمها وبدأ دورها الجهادي؛ ونشير هنا إلى مقاطع مهمة في هذا المجال من قبيل:

- عظمة التأثير الاجتماعي والتعمير على يد البويهيين والجلائريين والإيلخانيين في القرنين السابع والثامن.
- دورها أثناء الحروب المؤسفة المخربة بين الصفويين والعثمانيين في القرنين العاشر والحادي عشر مما جرّ عليها الخراب، وكان حصار رجال السلطان سليم عام ١٠٣٢ رهيباً.
- الحصار الوهابي والنهب والسلب حيث جاء من الرحبة عام ١٢١٦هـ وتكرر بعد ذلك كما ذكر صاحب (مفتاح الكرامة) السيد العاملي وكان هو من المقاومين.
- جهاد علماء النجف وصراعهم ضد الإنكليز دفاعاً عن الدولة الإسلامية العثمانية وكان المرحوم السيد محمد سعيد الحبوبي والمرحوم شيخ الشريعة من القادة فيه، وإن كان الأتراك لم يعطوها حقها بل هاجموها بقوة.
- إلتحام النجفيين مع الانكليز المحتلين في عام ١٣٣٦هـ وكانت النتائج الفضيعة من إعدام الزعماء ونفيهم، ولكن مهد ذلك لاستقلال العراق.

وقد حاول المستعمرون فرض الوصاية على العراق فرفض المراجع وعلى رأسهم الإمام الشيرازي وكانت ثورة العشرين من القرن الميلادي (١٣٣٨هـ) وحوادثها معروفة.

- دورها الجهادي أثناء الحكم الملكي الرجعي وبعده ضد سيطرة الشيوعيين والبعثيين وبالتالي ضد نظام صدام المجرم المستبد، وهنا يتذكّر المرء دور الإمامين الكبيرين الحكيم والصدر في هذا المجال. ومن الجدير بالذكر أن نظامه الفاسد سقط في

ذكرى إعدام الشهيدين السيّد محمد باقر الصدر وأخته العلوية بنت الهدى رحمهما الله تعالى.

إن الدارس للحياة الجهادية للنجف الأشرف يجدها مدينة تتابع الأحداث أولاً بأول، وتتفاعل مع مختلف قضايا الأمة على مرّ العصور وخصوصاً في الفترات المتأخرة؛ فالقضايا حاضرة كقضية الثورة الدستورية في إيران إذ كانت تستمد تنوّع أحداثها وزخمها من النجف، وكذلك الثورة الإسلامية المباركة التي كانت النجف بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) ترشدها إلى أهدافها، وهكذا القضية الفلسطينية وثورات شمال إفريقيا كالثورة الجزائرية والتحركات في آسيا الوسطى، والقضية الهندية وسائر جنوب شرق آسيا، مما يعبّر عن نظرة دقيقة واهتمام بالغ وتتبّع منقطع النظير.

ثم إن من يتابع تأثير الفكر النجفي وخصوصاً فكر الشهيد الإمام محمد باقر الصدر وسائر المفكرين في النجف كالمرحوم المظفر وزين الدين وشمس الدين وفضل الله وغيرهم في إيجاد صحوة إسلامية شاملة في كل أرجاء العالم الإسلامي، وكذلك ما تركته الكتابات السياسية من قبيل كتاب (المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون)، وتدخّل مرجعية الإمام السيد محسن الحكيم في مجال منع سيطرة الشيوعيين، وفي قضية الأكراد، وفي قضية إعدام المفكر سيّد قطب وغيرها، يكتشف عمق وسعة الدور السياسي والجهادي للنجف في الحياة السياسية والجهادية الإسلامية في كل العالم الإسلامي.

ثانياً: الوهج الجذاب والمنسق للمسيرة الحضارية للأمة، والقدسية الدينية:

لقد تمتعت النجف بوهج قبل مجيء الإسلام، فقد أسماها أصحاب المعاجم خدّ العذراء، وجعلها الساسانيون والمناذرة متنزّههم المفضل حيث بنوا (أبا الخصيب) و (الأبيض) و (الخورنق) و (السدير) وغيرها، وقد حملت الكثير من الأسماء على مرّ العصور: (الطور، الظهر، الجودي، الربوة، وادي السلام، بانقيا، الغري، المشهد)، مما يعبّر عن مكانة متميّزة.

أما بعد مجيء الإسلام وبالخصوص بعد تحوّل الكوفة إلى عاصمة للخلافة الإسلامية وبعد دفن الإمام علي عليه السلام، وهو قائد الغرّ المحجلين وأمير المؤمنين، فقد اكتسبت قدسيّة خاصّة ومكانة ممتازة في قلوب المسلمين، خصوصاً بعد الإعلان عن قبره الشريف عام ١٧٠ للهجرة، ثم بعد هجرة المرحوم الشيخ الطوسي إليها عام ٤٤٨ للهجرة الشريفة وبدء التوهج العلمي الحوزوي فيها.

كما ساهمت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في منحها قدسيتها المميزة فهي تسميها (محل الأمان) وتتحدث عن فضل الدفن فيها واستحباب التختم بفصّها، والمجاورة والمبيت فيها.

والحقيقة أن وجود مرقد الإمام علي (ع) فيها جعلها مهوى القلوب بالإضافة إلى وجود مقامات للأنبياء كهود وصالح (ع) والأئمة كالإمام زين العابدين (ع) والإمام المهدي (عج) والمساجد التاريخية: (الحنانة، مسجد عمران بن شاهين، الخضراء، الرأس) وكذلك وجود المدارس التاريخية الدينية كمدارس (المقداد السيوري، والملاّ عبدالله، والغروية، والصدر، والمعتمد، والقوام، والسليمية، والإيرواني، والقزويني، والهندي، والشربياني، والآخوند (الكبرى والوسطى والصغرى) والبخاري، واليزدي، والبروجردي، والحكيم، والخوئي وغيرها)، وكذلك وجود المكتبات العريقة الكبرى والمتوسطة من قبيل مكتبات (الحيدرية، وبحر العلوم، والشيخ كاشف الغطاء، والطريحي، ونظام الدولة، والتستري، والنوري، واليزدي، وشيخ الشريعة، والسماوي، والقزويني، وآل حنوش، والحسينية، وأمير المؤمنين، والحكيم، وغيرها).

نعم، كل هذا التمتع بهذه الخصائص ميّزها وقدّسها في عيون العالمين، وجعلها مهوى أفئدة العارفين، وطلاّب العلوم الدينية والفلاسفة والحكماء والمؤلفين، فألفوا فيها المجلدات، وهنا نجد مثلاً:

أبا الحسين الدهقان في القرن الرابع الهجري، وأبا جعفر الرازي في نفس القرن وغيرهما كصاحب (حد الغري) وصاحب (فرحة الغري) وصاحب (الدلائل البرهانية) ومن المتأخرين أصحاب (اليتيمة الغروية) و (الجنات الثمانية) و (لؤلؤ الصدف) وبالتالي

الشيخ العلامة محمد جعفر محبوبة تلميذ الإمام البلاغي بتأليفه الرائع (ماضي النجف وحاضرها) الذي استفدت منه كثيراً.

وينبغي أن لا نهمل هنا دور النجف الأدبي والشعري، فقد كانت ولا تزال رافداً عظيماً للغة العربية والأدب وتخرج فيها مئات الشعراء الكبار عبر التاريخ، وفي العصر الأخير كالجواهري والشبيبي وبحرالعلوم والظالمي والفرطوسي والخضري والوائلي ومطر وجمال الدين والسيد محمد جمال وغيرهم من الكبار الذين عاصرنا بعضهم ونهلنا من عطائهم. كما أنها كانت موضع إعجاب الشعراء عبر التاريخ، فهذا الشريف الحماني المعاصر للإمام الهادي (ع) يقول:

فيا أسفي على النجف المغرّى وأوديةً منوّرة الاقاحي

ويقول بعض الكوفيين:

وبالنجف الجاري إذا زرت أهله مهاً مهملات ما عليهن سائس

ويتغنى اسحاق الموصلي:

ما إن رأى الناس في سهل ولا جبل أصفى هواءً ولا أغذى من النجف

ويقول ابو دلامه:

قف بالديار وأي الدهر لم تقف على المنازل بين الظهر والنجف

ويقول ابن ابي الحديد:

يا برق إن جئت الغري فقل له أتراك تعلم من بأرضك مودع

ومن المتأخرين: يقول الشيخ محمد جواد الشبيبي:

وأنت ياقبة الإسلام لو لجأت إليك مطرودةُ الأقدار لم تخف

ويقول أيضاً:

أعلت منار الهدى في كل مملكة هذي العمائم لا تلك الأكاليل

ويقول الشيخ محمد السماوي:

ألمّ علـــى ذكـــوات النجـــف ولاحـــظ بطرفـــك تلـــك الطـــرف

وينشد الشيخ جعفر النقدي:

خفقت على ذكـرى الغـري ضـلوعه فغدت تسيل علـى الخـدود دموعـه

ويقول السيد علي نقي الهندي:

نجـــف ومـــا أدراك مـــا نجـــف للنـــاس والأمـــلاك معتكـــف

ويخاطب الشاعر المجذوب من لم يرع حقّه فيقول:

قم وارمـق النجـف الشـريف بنظـرة يرتـد طرفـك وهـو بـاك أرمـد

تلـك العظـام أعـز ربـك خلقهـا فتكـاد لـولا خـوف ربـك تعبـد

ورثـــت شمائلـــه شمائـــل أحمـــد فيكـــاد مـــن برديـــه يشـــرق أحمـــد

وقلت أنا:

إيـــه هـــذا قـــم وصـــوب نظـــراً لتـــرى عينـــاك مـــن حـــاز الرهـــان

أيـــن مـــا شـــدت بنـــاءً شـــامخاً خلتـــه يعلـــو علـــى الـــدهر مصـــان

لا تســـلني انكفـــأ الملـــك شـــجىً راح يبكـــي التـــاج فيـــه الصـــولجان

ونمـــى العـــدل علـــي ومضـــى يتحـــدى كـــل غـــارات الزمـــان

فاســـتحال الحـــق والمجـــد لـــه في فـــم الحمـــد بـــذكراه لســـان

والصـــفات الغـــرُّ وقـــفٌ لفـــتىً مـــدت العليـــا لعليـــاه البنـــان

يصـــغر التـــاريخ في محرابـــه طالبـــاً منـــه لكـــي يبقـــى الأمـــان

وأخيراً،

وبعد كل هذا العرض السريع جداً والموجز جداً هل يبقى مجال للحديث عن المعنى الثالث للعاصمة الثقافية أي مسألة: التميز بالخصائص القيمة مما يجعل العاصمة نموذجاً شاهداً حياً؟

فهي النموذج الشاهد للعلم المعمق، والتبليغ الواعي للإسلام، والمرجعية الدينية ذات الأفق الواسع، والجهاد المتواصل في سبيل قضايا الأمة، والمنبع الثر لأدبها القرآني، والمثال الذي تهفو له وتقدسه جماهيرها ويتغزل به شعراؤها.

فيا نجف علي الكبير ويا نجف الشرف والعز والشموخ إلى الأمام في عطائك الثر وتبْرِكَ الصافي الذي تغنى به الشاعر فقال:

لعلـع ببـاب علـي أيهـا الـذهب واخلب بِأبصارْ من جاؤوا ومـن ذهبـوا

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أبنائك الأوفياء.

وفي الختام تجدر الاشارة الى العلاقات الثقافية والاجتماعية التي تربط الشعبين العراقي والإيراني، وهي تصل من المتانة الى الحد الذي لا يمكن معه الفصل بين التاريخ الثقافي لهما؛ فالروح واحدة، والشخصيات ملتحمة، والتيارات ممتدة، والتفاعل تام، فهما عنصران متكاملان في خدمة قضايا الأمة وتراثها وأهدافها السامية.

وإنا لنتطلّع إلى اليوم الذي تكون فيه الحالة الثقافية لكل العالم الإسلامي على هذا المستوى من التفاعل والتلاحم لنحقق بذلك المقولة القرآنية عن الامة الواحدة.